بغداد في القرن الرابع الهجري
(القرن العاشر الميلادي)

المستشرق الفرنسي ماريوس كنار

ترجمة الدكتور

اكرم فاضل

مديرية الفنون والثقافة الشعبية – وزارة الاعلام
بغداد

ان القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر كذلك (لان بحثنا لابد له أن يتجاوز القرن العاشر) هما لبغداد فترة قلاقل سياسية ودينية واجتماعية انزلت بمجموعها ضربة خطيرة على يافوخ رفاه المدينة ومنزلتها في العالم الاسلامي . وفي خلال هذه الحقبة ذاتها أصبحت عاصمة الامبراطورية الاسلامية عاصمة دولة تقتصر في معظم الاحوال على سواد العراق ، ولو لم تكن بغداد رمزا للخلافة، الخلافة التي ظلت تحيطها بهالتها المتلألئة ، نقول لولا ذلك ولولا أنها ديمومة للتشكيلات الادارية للماضي رغم تهافتها ، ولولا بقاء مجتمع ارستقراطي وبرجوازي وارثا أمجاد العهد السالف ، ولولا النشاط الثقافي الذي ظل يشيع أضواءه ، لولا كل هذه لما بقيت لبغداد أهمية تفوق أهمية عواصم الدول الثانوية التي نشأت نتيجة لتفكك الامبراطورية العباسية . وفي نهاية القرن العاشر ظهرت عاصمة اسلامية كبرى ثانية طفقت تمحق مجد بغداد التي لم يبق الا اسمها دليلا على عظمة مدينة القرن المنصرم .

وها اننا نأخذ على عاتقنا بحث الحياة السياسية والحياة الدينية والحياة الاجتماعية والاقتصادية لبغداد في ذلك الاوان ورسم المراحل الرئيسية له .

الحياة السياسية :

اجتازت بغداد في هذه الفترة سلسلة من الازمات السياسية الخطيرة التي لم تقع دون أن تؤثر في جو طمانينة بغداد وسلامها ، هذين العنصرين اللذين تحتاج اليهما كل مدينة عظمى لدوام حياتها وازدهارها . ولن نتلبث طويلا عند تدهور الخلافة العباسية التي تابعت انحدارها الذي استعصى علاجه تحت حكم المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ / ٩٠٨ – ٩٣٢) مع حكومة كانت في الواقع حكومة نساء وخصيان لا يملك حيالها وزير من وزن علي بن عيسى أو زعيم عسكري مثل مؤنس حولا ولا طولا . لقد عرف هذا الحكم الطويل أزمتين كادتا تقذفان بالخليفة من على عرشه. الازمة الاولى كانت أثناء الثورة الفاشلة ، لدى تسنم المقتدر زمام الحكم ومغامرة ابن المعتز ، الشاعر المثقف الذائع الصيت ، خليفة اليوم الواحد ، ذلك اليوم الذي كلفه حياته . والازمة الثانية كانت عام ٩٢٩/٣١٧ ، حين وضعت ثورة اخرى أخا الخليفة على العرش والمنتهية بعد عدة أيام بعودة الخليفة الى عرشه . ولكن المقتدر كان طوال حكمه العوبة بأيدي أفراد حاشيته وبطانته الذين ساندتهم أمه شغب ، وقد سقط هذا الخليفة قتيلا وهو يصارع بشخصه صراع المستميت انتفاضة عسكرية . اما خلفه وهو أخوه القاهر ، بطل مجازفة عام ٣١٧ التاعس ، فقد خلع وسملت عيناه عام ٩٣٤/٣٢٢ اثر وثبة سياسية عسكرية أقعدت أعوام (٣٢٢ – ٣٢٩ / ٩٣٤ – ٩٤٠) على العرش أحد ابناء المقتدر وهو الراضي . وفي عهد هذا الخليفة كمل انحطاط الخلافة ، وقام النظام الذي سلم مقاليد السلطان كلها بيد أمير الامراء الذي أزرى بالخليفة فلم يعد يعتبره عاهلا الا بالاسم ، واحتفظ الخليفة لنفسه بالمنزلة التي يخوله اياها لقب خليفة الرسول ، عترة النبي ، والسلطة الظاهرية بالتقليد الذي يخلعه الخليفة على رؤساء الامارات اللذين يعترفون

بسلطته الروحية ، كما يعترف بها أمير الامراء بسبب التقليد نفسه ، ومن ذلك التاريخ اتصلت حلقات الازمات وتفاقمت شرورها ، سواء أثناء تعيين أحد أمراء الامراء أو خلال تنصيب الخليفة نفسه .

وقد نشب صراع لا رحمة فيه على نيل لقب أمير الامراء واحتكار السلطة الفعلية . فكان المتزاحمون هم القادة العسكريون وكان معظمهم من أصل غير عربي ، وينضوي تحت لوائهم المرتزقة الاتراك والديلم ، وهناك القوات اللانظامية ، وثمة حرس الخليفة وقادته .. رؤساء كل هذه القوى كانوا يتطاحنون للاستئثار بالسلطة .

وقد خلف ابن رائق (٣٢٤ ـ ٣٢٦) (وهو الحائز الرسمي الاول على لقب أمير الامراء ، وكان سابقا واليا على واسط والبصرة) مرؤوسه القديم بجكم (٣٢٦ ـ ٣٢٩ / ٩٣٨ ـ ٩٤١) . وبعد موت بجكم ، وغب مرور فاصل زمني مارس فيه البريدي والي البصرة السلطة خلال شهر في بغداد ، فاز كورتكيج الفاراضي الديلمي عام (٣٢٩ ـ ٩٤١) بهذا المنصب ، ولكنه سرعان ما تنازل عن منصبه لابن رائق الذي عاد في أيلول من العام نفسه . واذ اضطر ابن رائق الى الفرار امام عودة البريدي وكان قد جلب معه الخليفة المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ / ٩٤٠ ـ ٩٤٤) لم يسلم بهذا الفرار فقد قتل في نيسان ٩٤٢ بأمر من أمير الموصل الحمداني . والامير الحمداني باعادته الخليفة الى عاصمة ملكه أصبح أمير الامراء في السنة نفسها مع لقب ناصر الدولة . غير أنه طرد عام ٩٤٣ من قبل الامير التركي توزون ، الثائر عليه ، الذي أمسى أمير الامراء . ولكن وفاة توزون عام ٣٣٤ آب ٩٤٥ ، ترك السلطة مفتوحة أمام ناصر الدولة الذي كان يحلم بالاستحواذ على السلطة في بغداد ، وكان أمير الامراء الجديد ابن شيرزاد الذي اختارته القوات المسلحة يرى في وقت من الاوقات الانسحاب من الميدان . ولكن أحمد بن بويه الديلمي (وكان قد خدم مرداويج ، السيد الجديد لفارس الشمالية الغربية ، مستوليا على خوزستان ، وقد سبقت له محاولة النفوذ الى العراق) ها هو يحتل بغداد عام ٣٣٤ / ٩٤٦ ويغدو فيها أمير الامراء مع لقب معز الدولة ، وباحتلاله هذا تألق في بغداد نجم اسرة سميت بالاسرة البويهية ، كان من أفرادها امراء الامراء ، وقد تطور نفوذهم أكثر فأكثر باتجاه سلطة (السلطان) بالرغم من ان الامراء البويهيين لم يتسموا بهذا اللقب ، ولو انهم قد تبنوا بعد ذلك لقب مالك الدولة بل الشاهنشاه .

خلف معز الدولة ابنه بختيار دون حدوث أزمة سياسية (٣٥٦ ـ ٣٦٧ / ـ ٩٧٨) . ولكن تدابيره السياسية الخرقاء جعلت رئيس الاسرة البويهية ، وكان آنذاك عضد الدولة سيد فارس ، يطوح ببختيار ويضم الى ممتلكاته العراق وبغداد عام ٣٦٧ / ٩٧٨ . وعند موت عضد الدولة عام ٣٧٢ / ٩٨٣ نبعث من جديد أزمات الوراثة وشن اولاد عضد الدولة الحرب على بعضهم . وتسلم احدهم ، بهاء الدولة ، أزمة الحكم في بغداد عام ٣٧٩ / ٩٨٩ وظل يحكم حتى عام ١٠١٢/٤٠٣ . وببهاء الدولة بدأ أفول طالع الاسرة البويهية .

وبالرغم من أن الخلفاء لم تعد لهم طاقة ولاقوة فان توارث الخلافة لم يحدث دون وقوع اصطدامات . فالخليفة المتقي بن المقتدر الذي اجلسه الامير بجكم على العرش عقب وفاة الراضي عام ٣٢٩ / كانون الاول ٩٤٠ ، خلع عن العرش وسملت عيناه بأمر أمير الامراء توزون عام ٣٣٣ / ٩٤٤ . واستخلف توزون على العرش المستكفي الذي سملت عيناه ونحي عن العرش عام ٣٣٤ / ٩٤٦ بأمر معز الدولة . واجلس محله على العرش المطيع ، العدو الشخصي للمستكفي . ولكنه ارغم عام ٣٦٣ / ٩٧٤ على التخلي عن العرش لولده الطائع بأمر الحاجب التركي سبكتكين . وقلب بهاء الدولة الطائع عن العرش عام ٣٨١ / ٩٩١ . في سبيل الاستيلاء على ممتلكاته . وحكم خلفه القادر حتى عام ٤٢٢ / ١٠٣١ ، ورأى ابنه القائم نهاية الاسرة البويهية ومجيء السلاجقة . كانت هذه التبدلات العديدة مصحوبة في أغلب الاحيان باضطرابات مدنية أو عسكرية واعتقالات ومداهمات كبس وتعقيبات وقد ترافقها حوادث قتل . وبعد اخفاق القاهر عام ٣١٧ / ٩٢٩ لم يحدث اعدام نظرا لاعتدال المقتدر . وكانت المعارك التي تدور بين الطامحين الى امرة الامراء دامية : كانت تحرق دار الامير السابق بعد هزيمة صاحبه العسكرية وتنهب (كما حدث لدار بجكم على أيدي رجال ابن رائق حينما ظهر مجددا في بغداد) . وعانت المدينة نفسها الامرين من ويلات شرور العساكر . وكان الاهالي ينتقمون بقسوة أحيانا . وعلى هذا المنوال ذبح ديلم الامير كورتكيج عام ٣٢٩ . ولم تجلب الحرب الاهلية معها الا افساد الحياة الاقتصادية كما سنرى .

وفي أيام حكم المقتدر كانت ترافق تبدلات الوزراء أعمال انتقامية تنصب على رأس الوزير الساقط : كان يسجن ويقدم للمحاكمة ويحكم عليه بغرامة فادحة وكان يعذب أحيانا بل يحكم عليه

بالموت ، كما وقع لابن الفرات . وكان الشعب نفسه يشاطر في الاجراءات الانتقامية ضد الوزير فينهب داره .

ونحن لا نحصي أقل من سبعة وعشرين تبدلا من تبدلات الوزراء في عهود حكومات المقتدر والقاهر والراضي ، فان وزراء امراء الامراء او بالاحرى كتابهم الذين كانوا في الواقع وزراء حقيقيين ووزير الخليفة الذي لم يعد له من الحكم شيء رغم استمراره في البقاء ، نقول كان هؤلاء الوزراء جميعا لا ينفكون عن التبدل ، وفي عهد معز الدولة كان ثمة شيء من الاستقرار : لم يكن لديه الا وزيران ، المهلبي حتى عام ٣٥٢ / ٩٦٣ ، وبعد ذلك الشيرازي وابن الفسنجاس في آن واحد . وقضية المهلبي قضية غريبة : اذ جلده الامير بالعصي ولكن رغم ذلك استبقاه وزيرا . كان في بعض عهود خلفاء معز الدولة ، ولاسيما بهاء الدولة ، شلال حقيقي من الوزراء . نستخلص من هذا ان طابع الحياة السياسية في تلك الحقبة كان عدم الاستقرار الذي يفسر جزئيا القلاقل التي شملت المدينة . وفي الفترة التي تعنينا تركزت الحياة السياسية والحياة الادارية في مدينة الجانب الايسر من دجلة حول قصور الخلفاء والوزراء وامراء الامراء . وتؤلف منظومة دور الخلفاء مدينة حقيقية بحرمها الخاص وكانت تسمى دار الخلافة الواقعة على دجلة قرب سافلة حي المحزم وحي (سوق الثلاثاء) . وكانت تتألف من ثلاثة قصور رئيسية ، الخزانة ، التاج ، الفردوس ، الواقع بعضها على مقربة من بعض ، وفي الحدائق التي توجد فيها سرادقات أو قصور ثانوية يصعب علينا تعيين مواقعها ، كدار الاترجة أو دار الشجرة . اما قصر الخزانة فمدين باسمه الى وزير المأمون الحسن بن سهل ، الذي أهداه اليه . وكان أقدم المجموعة . واما قصر التاج الذي شرع بتشييده المعتمد ، فقد واصل العمل فيه المكتفي الذي بنى كذلك مسجد القصر ، وكان موقعه كموقع الخزانة على شاطيء دجلة ، أكثر بعدا عن مهبط المدينة . وأما قصر الفردوس ، فهو اتآى لأن قاصديه ينفذون من قصر الفردوس الى مسجد القصر الذي بوسعنا أن نقرر موقعه اعتمادا على الانقاض الباقية منه . وهناك قصر آخر هو دار الثريا ، وكان يقع بعيدا الى الوراء ، لأنه كان على مسافة ميلين بعدا عن قصر التاج وقصر الخزانة ، وكان يشتمل على حديقة حيوانات وغابة صيد (حير الوحوش) ولا ريب انه صيغ على مثال حديقة الحيوان الفارسية الفردوس . وقد اهتم الخليفة المقتدر بحير الوحوش اهتماما خاصا . وبين قصور ضفاف دجلة ودور الثريا تقع الحلبة التي كانت ساحة للعبة الكرة والصولجان .

في قصور الخلفاء هذه أظهر المهندسون والفنانون والصناع البغداديون كل ما اوتوه من مهارة وابداع ونبوغ ، ارضاء لنزوات الخلفاء ، فاعطوا الزوار المسلمين والاجانب انطباعا عن ثروة وترف لا ضريب لهما ومنافسة للقصر العظيم الكائن في القسطنطينية الذي كان يعرفه سفراء الخلفاء معرفة جيدة . وان الشجرة المصنوعة لقصر الشجرة لتبدو بجلاء محاكاة لمثال بيزنطي ، وكان القصر عبارة عن متاهة من الابواب والدهاليز والممرات والساحات وقاعات الاستقبال أو قاعات عرض التحف الفنية ونماذج السلاح الفريدة المجموعة هناك من عهد البناء ، مع غزارة في الطنافس والسجاجيد الثمينة . وكانت خدمة الخليفة والعناية بحريمه وكذلك الحفاظ على القصر تستوجب توفر خدم كثيرين وحجاب عديدين ووصفاء ووصائف لا يحصون وخصيان كان عددهم بلغ ٧٠٠٠ خصي في زمان المقتدر (٤٠٠٠ من البيض و ٣٠٠٠ من السود) وطبقا لبعض التقديرات بلغ تعدادهم ١٥٠٠٠ نسمة ، وبالاضافة الى هذا كان ثمة ٤٠٠٠ غلام أسود .

كانت هذه القصور الخليفية مسرحا لاحداث بارزة في الحياة السياسية . وأهم هذه الاحداث استقبال السفراء البيزنطيين عام ٣٠٥ / ٩١٧ ، ذلك الاستقبال الذي ترك انطباعا قويا في نفوس الذين حضروه ، وكشاهد على ذلك عدد القصص المنسوبة الى شهود عيان المودعة في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . ففيه جرى تعداد كل أجزاء قصر التاج وقصر الفردوس حيث طاف السفراء ، كما دونت اوصاف تلك القصور ومرافقها . وقد وقعت فيها حوادث دامية كذلك . ففي قصر الخزانة تواجد جعفر (المقتدر) عائدا من ميدان سباق الخيل بعد أن افلت بقدرة قادر من محاولة اغتيال حياته التي دبرها المتآمرون من انصار ابن المعتز . وفي قصر التاج حوصر القاهر عام ٣١٧ / ٩٢٩ ، وكان المدافع الرئيسي عنه ابو الهيجاء الحمداني الذي بذل كل ما في وسعه للأخذ بيده واخراجه عن طريق قصر الفردوس ، ولكن المنافذ جميعها كانت قد سدت ، فاضطر للتراجع الى الوراء فقتل في دار الاترجة ، في حين كان القاهر قابعا في السجن .

ونهبت مكنونات قصر الثريا عام ٣١٥ / ٩٢٧ من قبل فرسان الحرس المتمردين الذين نحروا حيوانات دار الحير ، ولم يوفروا حتى ابقار

الفلاحين المجاورين . وفي حلبة الصيد التابعة لهذا القصر ، كاد الراضي يغدو ضحية محاولة لقتله عام ٣٢٦ / ٩٣٢ — ٨ . ولم تعف حتى القصور الخليفية في الحروب التي كانت بغداد مسرحا لها أثناء حكم امراء الامراء . وفي عام ٣٣٠ / ٩٤١ — ٢ نهبت قوات البريدي قصر الخليفة المتقي وكان قد غادر بغداد مع ابن رائق . وخلال اعتقال المستكفي وخلعه عن العرش على يد معز الدولة ، اخترق الديلم من اتباع الامير مقاصير حرم الخليفة واعتقلوا القهرمانة التي كانت قد تآمرت على سيدهم .

وكان القصر الوزيري بمختلف دوائره ومكاتبه خلال شطر من القرن العاشر هو القصر القديم لسليمان بن وهب الواقع على مصراة الصخر ، قريبا من باب المخرم . وقد اشتهر هذا القصر بوزراء من أمثال ابن الفرات وعلي بن عيسى . ولكن هذا القصر بيع عام ٣٢١ / ٩٣٣ من قبل الخليفة القاهر . وفي دار سليمان بن وهب طبخت مؤامرة ابن المعتز . وعلى وجه التحقيق كان هذا القصر بالغ الترف مكيفا للابهة ، ذلك لأن السفراء البيزنطيين ادخلوا في مرافقه قبل ان يحظوا بالمثول بين يدي الخليفة ، فظنوا أنهم في بلاط الخليفة نفسه .

وقد لعبت قصور أخرى دورها في تاريخ بغداد في تلك الحقبة ، كمقام علي بن عيسى الخاص الواقع قرب بستان الزاهر ، في أعلى المخرم ، وكصرح ابن مقلة . وكان موقع قصر ابن الفرات في سوق العطاش في نفس المنطقة . وبين قصور الخلفاء وسوق الثلاثاء يربض قصر مؤنس قائد الجيش الاعلى في زمن المقتدر ، وموضعه معروف ، اذ على جانب هذا القصر شيدت المدرسة النظامية . وكان هذا القصر محل اقامة امراء الامراء المتعاقبين: ابن رائق وبجكم وتوزون والبريدي ، حاشا ناصر الدولة الذي أقام دائما على الجانب الايسر في باب خراسان . وفي قصر مؤنس أقام كذلك معز الدولة البويهي بادىء الامر . وكما سنرى صارت قصور الوزراء عدة مرات هدفا لهاجمات المتمردين من عسكريين ومن أوساط شيعية . أما الجانب الأيمن في زمان موضوع بحثنا ، فرغم انه لم يهجر ، لم تكن أهميته كأهمية الجانب الايسر ، وهو يشتمل على أحياء شعبية تعج بالحيوية ، كمحلتي الكرب وباب البصرة ، الخ . وعلى الضد فان مدينة المنصور المدورة مهدمة ، ولكن مسجدها قائم . لقد دمرت الاسوار جزئيا ، ولكن مواقعها ظلت مملوكة للدولة، فشيدت عليها منازل . وحسبما يقول التنوخي ان وزيرا للمقتدر استفاد منها بفرض « ضريبة الموقع » على كل بيت جديد يقام في تلك البقعة (نشوار المحاضرة ، ج ١ ، ص ٧٥) . وعلى الجانب الايمن وجدت كذلك قصور تعود للخلفاء . ففي الشمال الغربي من ذلك الموقع كان موقع القصر القديم للطاهريين وكذلك موقع قصر آخر في الزبيدية (اقطاعية زبيدة) . وكان الخلفاء يقيمون هناك أحيانا بصورة موقتة ، فجعفر المقتدر بن المعتضد سكن في قصر الطاهريين ، وهناك بحث عنه الباحثون لتنصيبه على العرش . وفي الجانب الايمن من الجنوب الغربي من المدينة كانت حديقة تدعى النجمي . واستعمل السهل الممتد أسفل النجمي معسكرا لقوات البريدي عام ٣٢٩ / ٩٤١ ولعضد الدولة عام ٣٦٨ / ٩٧٩ لدى عودته من غزو الجزيرة وهناك أقام الامير بجكم عام ٣٢٧ / ٩٣٩ مأدبة عظيمة احتفالا بالعيد الفارسي (السدق du Sadaq) حيث كانت توقد النيران المتكاثفة ، كما اقيم مستودع كبير للمياه .

وظل الجانب الايسر مركزا للحكومة في عهد البويهيين . ومعز الدولة الذي أقام بادىء الامر في قصر مؤنس أشاد عام ٣٥٠ / ٩٦١ مجموعة قصور في باب الشماسية مع ميدان لسباق الخيل وحدائق . وانفق على ذلك مبالغ طائلة وجعل لقصره أبوابا من حديد المدينة المدورة[1] . ثم بنى عضد الدولة في أعلى المخرم — في موضع سكنه سبكتكين حاجب معز الدولة الذي لم يحتفظ الا بجزء طفيف منه — قصرا شامخا ذا أبواب خارجية مشمخرة وقباب أبوابها الغربية تفتح على دجلة ، ويضم دار العامة وقاعة الاستقبال العامة وقاعة اجتماع الوزراء ، ومكاتب الوزراء ومنشآت للحرس . وهذه المجموعة حملت اسم دار الملكة ، قصر الحكومة ، معارضة لدار الخلافة ، القصور الخليفية[2] .

وقد رفع بهاء الدولة لنفسه قصرا في سوق الثلاثاء قوض لبنائه أركان قصر معز الدولة الذي تم نقضه نهائيا عام ٤١٨ / ١٠٢٧ — ٨ . ومثلهم مثل وزراء الخلفاء القدامى ، كان للوزراء الجدد قصور فخمة ، كقصر المهلبي الذي لعله كان واقعا في المخرم وقد عرف باسم دار البركة ، وقد ذكره التنوخي[3] وكقصر دار الخاقان الذي كان يقع على الساحل الايمن حيث ملتقى نهر الصراة بنهر دجلة :

---

(١) انظر الصولي ، اخبار الراضي والمتقي ، الترجمة ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٢) ابن الاثير ، مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، نشوار المحاضرة ، ج ١ ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٣) الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

وقد أقام مهرجانا عظيما فيه على شرف معز الدولة(٤) . وفي قصر الخليفة استمرت مراسيم تنصيب أمير الأمراء ، حسب التقاليد المرعية : خلع ثياب تشريف (سبعة أثواب أحيانا) وقلائد وأساور وراية ومنح كنية ولقب(٥) .

وفيما عدا مراسيم التقليد هذه وكل مايتصل بالسلطات القانونية الدينية التي تخص الخليفة ومراسلاته ، كانت الوزارة الخليفية تعنى بادارة الممتلكات الشخصية للخليفة .

وفي أثناء القرن العاشر عانت الحياة السياسية ما عانت من الآلام ، لشق الجيش عصا الطاعة بقيادة زعمائه الذين استخدموه لارضاء طموحهم الشخصي، فحدثت حوادث عصيان عسكرية أثارها الاستياء الذي كان يعقب هذا الاجراء أو ذاك للسلطة أو تأخر منح اعطيات الجند أو عدم كفاية الموجود منها ، نتيجة للمنافسات القائمة بين عنصري الجيش ، الاتراك والديلم ، وكذلك نتيجة للحركات الشعبية المسببة عن غلاء الحياة او التناحرات الدينية ، أو مجرد الرغبة في النهب . وسنتناول هذ الامور بالتعداد في الصفحات التالية .

الحياة الدينية :

كانت الصلاة في بغداد تقام في اربعة مساجد جامعة ، على الجانب الايمن ، جامع المنصور في المدينة المدورة ، جامع براثا ، الذي ربما كان في مشهد المنطقة الحالي ، ومعنى ذلك بين المدينة المدورة ودجلة ، وعلى الجانب الايسر ، جامع الرصافة وجامع القصر . وفي نهاية القرن العاشر ، اضيف الى هذه الجوامع جامعان ، على الجانب الايمن ، جامع حي الحربية وجامع قطيعة زبيدة أم جعفر(٦) . وكانت للجوامع الاخرى بعض الاهمية ، كجامع الشرقية الذي كان في الكرخ(٧) .

كانت الحياة الدينية في معظم الحالات مضطربة تسودها القلاقل ، وذلك بسبب الوشائج الوثيقة بين السياسة والدين ، فمن جهة كان الاسلام الرسمي لا يقوى على تحمل السهام التي توجه الى القاعدة مهددة وحدة الامة الاسلامية دون رد فعل من جانبه ، ومن الجهة الاخرى كان ينازل الالحاد والزندقة ، وكان السكان منقسمين الى أحزاب سياسية لا تنفك عن مناواة بعضها بعضا : والتجابه بين السنة والشيعة ، وهو قديم ، أصبح أشد حدة خلال هذا القرن واتخذ أهمية اكبر بمجيء البويهيين الى الحكم ، وكانوا شيعة موطنهم الاصلي الديلم الذي مال الى الاسلام بتأثير العلويين .

وفي صراع السلطة مع الزنادقة والملحدين كان الحادث الأهم هو محاكمة الحلاج الصوفي ، فان معتقداته واتحاد النفس الفردية مع الجوهر الالهي ، واندماج شخص الصوفي في الوجد على الحقيقة (أنا الحق) ونظرية الالتزامات الشرعية ، حتى الحج ، كانت قابلة للاستبدال ، كل هذا كان مما لا يتلاءم مع العقائد الثابتة . ومن جهة اخرى فان وعظه قد أثر في بعض الاوساط القريبة من البلاط كنصر حاجب المقتدر وقائد جيش الخليفة حسين بن حمدان . كما ان أم الخليفة المقتدر شغفب كانت معنية به . اتهم بممارسات دجل وشعبذة واسندت اليه جريرة قوله أنا الله ، فاعتقل وسجن واستجوب مطولا ، ثم بعد فتوى القاضي المالكي أبي عمرو ، بناء على طلب الوزير أبي حامد بن العباس ، حكم عليه بالاعدام . وقد نفذ فيه الحكم بعد أن جلد وقطعت أوصاله ، وذلك في ساحة تقع أمام سجن الجانب الايمن ، مقابل باب الطاق ، بحضور جمهرة كبيرة من الناس ، وعلقت جثته على المصلب في السادس والعشرين من آذار عام ٩٢٢ . وكانت هناك محاكمات أقل أهمية . ففي ٣٢٢ / ٩٣٤ ، اتهم كاتبان هما ابراهيم بن ابي عون ومحمد بن علي الشلمغاني المعروف باسم أبي القراقر ، بأنهما يمارسان أعمالا لا أخلاقية وعقائد زندقة (تجسيد الروح الالهي) ، فجلدا وقطع رأساهما وعلقا على المصلب . وقد زعم الاول والثاني ان الالوهية قد تقمصت في شخصيهما ونظر اليهما مريدوهما نظرتهم الى الاله . وقد ذكرت قضيتهم بقضية الحلاج ، وهذه الواقعة مذكورة بصورة صريحة في رسالة أرسلها الخليفة الراضي الى نصر الساماني مخبرا إياه باعدامهما . وهناك حادث آخر، هو حادث ابن شنبوذ ، قارىء القرآن المتهم بقراءات غير مشروعة . وقد مثل أمام ابن مقلة فضرب بالعصي حتى اضطر الى التراجع(٨) .

---

(٤) نشوار المحاضرة .

(٥) الحصري ، ذيل زهر الآداب ٢٧٦ . راجع الصولي ، اخبار الراضي والمتقي ، الترجمة ، ج ١ ، ص ١٧ ، ج ٢ ، ص ٥٦ (لبجكم وناصر الدولة) ، ومسكويه ، ج ٢ ، ص ٨٥ (لمعز الدولة) ، وأبا شجاع ، ص ٨٤ (لصمصام الدولة ، خليفة عضد الدولة) .

(٦) نشوار المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٧) الحصري ، ذيل زهر الآداب ، ص ٢٧٦ .

(٨) راجع كتاب الارشاد لياقوت حول ابن أبي عون والشلمغاني ، ج ١ ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ وانظر حول ابن شنبوذ الصولي ، ج ١ ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ ، ١٤٥ ، ٢١٣ . وقد مات في السجن .

والحوادث التي طبعت الحياة في بغداد في القرن العاشر بطابعها الخاص هي على وجه التخصيص الحوادث التي استثارتها المطاحنات بين السنة والشيعة. وكان في المدينة موطنان رئيسيان للشيعة هما باب الطاق في الجانب الايسر والكرخ في الجانب الايمن. وكانوا يبجلون بصورة خاصة جامع براثا بسبب اقامة الامام علي في هذا المكان عندما انطلق لمحاربة الحروريين، وكانوا يدفنون موتاهم في مقبرة هذا الجامع. ولكن العاصمة كانت كذلك قلعة للمذهب الحنبلي، الذي كان ممثله الأصخب، في الشطر الاول من القرن العاشر البربهاري المتوفى عام ٣٢٩ / ٩٤١. وكان يمارس نفوذا على الاهالي السنيين، ولاسيما الطبقات السفلى من السكان. والحنابلة بوصفهم أعداء الالحاد الالداء وأعداء كل الممارسات المعتبرة بدعا مكروهة اظهروا ضد كل ما عدوه انتهاكا لحرمات السنة والاخلاق العامة كل مقاومة (كالخمر والقيان ووجود اية امراة أو أي غلام بجانب رجل في الشارع والمنائح الجنائزية، الا ما سمحت به الشريعة)، كما وقفوا ضد المراسيم الشيعية وضد الشيعة انفسهم واماكن اجتماعاتهم. وكانت السلطة تتخذ طورا قرارات تجري في نفس الاتجاهات التي تجري فيها الاتجاهات الحنبلية وتارة تمضي في سبل متعارضة معها. وعلى هذا المنوال فان المقتدر امر عام ٣١٣ / ٩٢٥ بتخريب جامع براثا، لأن الناس كانوا يلعنون فيه صحابة الرسول. وعلى العكس في عام ٣٢١ / ٩٣٣ أصدر علي بن يلبق حاجب القاهر امره بأن يلعن معاوية في الجوامع وكذلك يزيد، ولدى استنكار العامة قرر القبض على البربهاري، الذي افلح في الهرب في حين كان عدة من أصحابه منفيين في عمان. صحيح ان ابن يلبق قد اعتقل واعدم بعد ذلك بفترة قصيرة، وان القاهر اتخذ اجراءات تتفق مع ميول المذهب الحنبلي فحرم الخمرة والغناء وأمر ببيع القيان بالقوة، ولكن يقال انه كان يهدف الى شراء القيان بأثمان زهيدة لارضاء شهواته الخاصة.

ومع ذلك فان الفظائع التي ارتكبت من قبل أنصار البربهاري كانت بالغة الشناعة بحيث ان الراضي كان مجبرا عام ٣٢٣ / ٩٣٥ على اصدار مرسوم ضدهم. صاروا يكبسون دور القواد والعامة: فان وجدوا نبيذا أراقوه، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، وصاروا يعترضون في البيع والشراء، وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان، فاذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو، فأخبرهم، والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة حتى ارهجوا بغداد(٩). وقد حظر عليهم صاحب الشرطة بدر الخراساني التجمع في الدروب والخوض في المجادلات المذهبية، وامرهم أن ينطقوا بالبسملة بصوت عال أثناء الصلاة(١٠) ولكن هذا كان جهدا ضائعا. لقد مضوا الى حد تحريض العميان في المساجد على ضرب الشافعية الذين كانوا يمرون من جانبهم بعصيهم.

ولهذه العلة فان الراضي وبخ الحنابلة في مرسومه على نشر المعتقدات المشبهة المجسمة ولعن أخيار المسلمين، واتهام أعضاء الشيعة من عترة الرسول بالكفر، ودعوة المسلمين الى احترام قبر ابن حنبل في حين انهم يمنعون زيارة قبور الأئمة، وهددهم بأقسى العقوبات، كالجلد والنفي والموت وحرق دورهم اذا لم يكفوا عن أعمالهم.

وفي عام ٣٢٦ / ٩٣٨ نفذ حكم الاعدام في حنبلي ادين باحداث القلاقل وكان قد فر من السجن فقبض عليه. وفي عام ٣٢٧ / ٩٣٩ شمر صاحب الشرطة عن ساعديه لكسر شوكة الحنابلة الذين أرادوا منع الناس من حضور الاحتفال بعيد ليلة ١٥ شعبان باعتباره بدعة. وقد اضطر البربهاري على الاختفاء، ومات بعد ذلك بقليل. وفي عام ٣٢٨ / ٩٤٠ (عام ٣٢٧ حسب رواية الصولي) أعاد الامير بجكم بناء مسجد براثا وتوسيعه نزولا على طلب الشيعة. ولكن عند وفاته في السنة التالية تظاهر الحنابلة وهم يصيحون «لقد تطهرت السنة» وحاولوا هدم المسجد، ولكن دون جدوى، فان الخليفة المتقي الذي زين هذا المسجد سابقا، وذلك باقامة منبر فيه يحمل اسم هرون الرشيد وجد في خزانة مسجد المنصور، اصدر أوامره بالقاء القبض على رهط من الحنابلة وحراسة جامع براثا(١١). ومع ذلك فان المتقي نفسه أمر عام ٣٣٢ / ٩٤٣ بالقاء القبض على زعيم شيعة باب الطاق بالرغم من ميلان الامير الحمداني ناصر الدولة اليه، الذي حبذ طبقا لرواية الصولي انتشار العقيدة الشيعية في بغداد أثناء امارته(١٢).

ويعتبر تسنم معز الدولة متن السلطة وصول امير ديلمي شيعي بصورة مكشوفة الى الحكم، ومع ذلك فقد تجنب احداث ثورة شيعية باعطاء الخلافة

---

(٩) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

(١٠) الشيعة والمالكية والشافعية ينطقون بالبسملة بصوت جهير، اما الحنابلة فلا.

(١١) انظر الصولي، ج ٢، ص ٢، ١٩؛ الخطيب، ج ١، ص ١٠٩ – ١١٠.

(١٢) انظر الصولي، ج ٢، ص ٦٨، ٧٨ – ٨٦.

الى علوي واحتفظ بعباسي بمثابة دريئة تحاشيا لخدش مشاعر الاهالي السنيين في بغداد ، ولكنه استحسن الشيعية ، وكان من أحد أسباب خلع المستكفي عن العرش عام ٣٣٤ / ٩٤٦ ان هذا الخليفة أمر بالقاء القبض على زعيم شيعة باب الطاق ورفض اطلاق سراحه . وفي عام ٣٤٠ / ٩٥١ ـ ٢ ، سجن الوزير المهلبي عددا لابأس به من الناس الذين كانوا يؤمنون بالوهية ابن ابي القراقر وضربهم بالعصي ، ابن ابي القراقر الذي جئنا على قصة اعدامه آنفا ، كما كانوا يقولون بتجسيد علي وفاطمة في شخص رجل وامرأة من بينهم(١٣) . وقد تشفعوا لدى معز الدولة بشخصية كانت تساند كونهم من شيعة علي . فعمل الامير على اطلاق سراحهم ، ولم يعارض الوزير لئلا يوصم بترك التشيع . ان المشاحنات بين الشيعة والسنة ، التي تفشت في بغداد قبل مجيء البويهيين ، أصبحت متصلة الحلقات بعد ذلك ، وزاد الطين بلة شعور الشيعة بأنهم مدعومون من قبل السلطة . وكانوا أقوياء بصورة كافية . ففي خلال اضطرابات عام ٣٤٩ / ٩٦٠ شملت الضفتين فمنعت اقامة صلاة الجمعة في المساجد ، عدا مسجد براثا . وقد حامت الشبهات حول هاشميين اتهموا بأنهم كانوا وراء هذه القلاقل فاعتقلوا ولكن اطلق سراحهم غداة غد . وفي عام ٣٥١ /٩٦٢ كان الامير نفسه قد أمر بوضع كتابات من الشتائم على جدران المساجد لاعنة معاوية وأبا بكر ، الخ . وقد محيت خلال الليل . فقد حصل الوزير المهلبي من معز الدولة على وعد بعدم اعادتها ثانية ، على أن تحل محلها كتابات أرفق منها تلعن من ظلموا آل البيت فقط ، دون تسميتهم بأسمائهم الحقيقية . وخطا الامير خطوة اخرى في السنة التالية ، وذلك حين أمر بالاحتفال الرسمي السنوي بمصرع الحسين (عاشوراء : ١٠ محرم) وذلك باقامة تظاهرات حداد (منائح جنائزية ، نساء في الدروب شعث الشعور يمزقن ثيابهن ، اقفال الحوانيت ، ارتداء المسوح ، رايات سوداء تنشر في الاسواق ، الخ . وسنوية واقعة غدير خم (في ١٨ ذي الحجة) باقامة أفراح واشعال مصابيح احتفالا بعهد الرسول الى علي . وهذه الاحتفالات ما لبثت ان اطلقت من فورها المشاجرات والمصافعات من عقالها بين السنة والشيعة .

وفي أيام بختيار ٣٦١ / ٩٧٢ ، أثناء الاضطرابات التي شب لهيبها عقيب تظاهرة شعبية سببها الطلب الى الامير المساهمة في الجهاد المقدس ضد البيزنطيين ، تحولت القلاقل الى اشتباكات بين الطائفتين اللتين ساند شطر من الجيش هذه الفئة وساند الشطر الآخر الفئة الاخرى ، ساند الديلم الشيعة ودعم الاتراك السنة . وخلال دفعتين تحزب الضابط المكلف باعادة النظام ضد الشيعة فأحرق الكرخ . وفي عام ٣٦٣ / ٩٧٤ سفك الرعاع من السنة دماء الشيعة ، مستندين الى دعم الحاجب سبكتكين قائد الجيش : فلاذ هؤلاء الشيعة بجانب الكرخ الذي احرق بهم ، وعلى العكس أسند الامير بختيار الشيعة . وكتب التاريخ مشحونة بالقصص المروية حول النزاعات التي نشبت بين الكرخ الشيعي وباب البصرة السني ، هذه المشاجرات التي أسهم فيها الرعاع والعيارون على حد سواء ، من هذا الجانب أو ذاك ، في حين كان الاشراف (ارستقراطية الاسلام) يبذلون قصاراهم ، كما في عام ٣٩١ / ١٠٠٠ ، لايقاف طغيان هذه التجاوزات ومن جهة اخرى كان الديلم والاتراك في تطاحن وفي تدخل لاصلاح ذات البين . وفي عام ٣٨٤ / ٩٩٤ نلاحظ وقوع المصادمات والمناوشات بين السنة والشيعة والحرائق المتعاقبة في عدة أحياء وجرائم العيارين المتواصلة . وفي عام ٣٨٩ / ٩٩٨ ـ ٩ يرد السنة على احتفالات الشيعة في عاشوراء واحتفال غدير خم بحفلة تمجيدية للرسول وابي بكر اذ هما في الغار في الثامن عشر من رمضان وباحياء ذكرى مقتل مصعب بن الزبير العدو الالد للمختار الثقفي الشيعي وذلك في ٢٦ ذي الحجة . وفي عام ٣٩١ / ١٠٠٠ ـ ١ حدثت معارك بين غوغاء الكرخ والاتراك الذين يساندهم السنة . وفي عام ٣٩٣ / ١٠٠٢ ـ منع حاكم العراق ابو علي بن استاذ هرمز عميد الجيوش أهالي باب الطاق وباب الكرخ من الاحتفال بعاشوراء ، وكذلك منع السنة في باب البصرة وباب الشعير (الجانب الايمن في الشمال الشرقي من باب البصرة) من الاحتفال بموت مصعب ، وفي عام ٣٩٨ / ١٠٠٧ ـ ٨ ضرب هاشمي من باب البصرة الفقيه الامامي ابن المعلم في مسجده بالكرخ ، وكان قد حكم عليه بالنفي عام ٣٩٣ من قبل عميد الجيوش ، فثار الشيعة وشتموا فقهاء السنة (ومن بينهم الشافعي الاسفرائيني) ، ففر هؤلاء الفقهاء .

ولم تنقطع القلاقل الا بعد عدة اعتقالات وحبوس ونفي ابن المعلم . ويسجل المؤرخون عام ٤٠٦ / ١٠١٥ ـ ٦ مصادمات بين أهالي الكرخ وأهالي باب الشعير ونهب سوق القلائين (الجانب

---

(١٣) راجع حول فرقة القراقريين البغدادي ، الفرق ، ص ١٣٩ ـ ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ .

الايمن) : فمنعت السلطات تظاهرات الشيعة في عاشوراء . وحدثت معارك جديدة عام ٤٠٨ / ١٠١٧ ــ ٨ بين السنة والشيعة في الكرخ . وفي عام ٤٢٠ / ١٠٢٩ تفوه خطيب بعبارات متطرفة في جامع براثا ، فأرسل الخليفة الى الجامع بخطيب رجمه المصلون فانقطعت الصلاة ، فجاء أعيان الكرخ الى الخليفة معتذرين وحصلوا منه على الاذن باستئناف اقامة الصلاة والخطبة في جامع براثا .

وفي عام ٤٢٢ / ١٠٣١ اندلعت نيران حرب أهلية حقيقية في بغداد . وكان الخليفة قد سمح للناس بالسفر لأداء الجهاد المقدس واعطاهم راية . فاستعرضوا انفسهم مسلحين في باب الشعير وهم يهتفون هتافات معادية للشيعة ، فأثار هذا التصرف ثائرة الكرخ وايقظ عين الفتنة فنهبت دور اليهود المتهمين بممالاة الشيعة . ثم اجتمع السنة في الجانبين وأعانهم العديد من الاتراك فزحفوا على الكرخ واشعلوا النيران في الأسواق . وامتدت الفتنة الى الضفتين ، ذلك لان الخليفة (القائم بأمر الله في أيامه الاولى) كان قد تحزب ضد الشيعة والكرخ ، فأحرقت مجددا أسواق اخرى فاضطرت السلطات الى قطع الجسر . وزاد الطين بلة انتشار العيارين في جميع أرجاء المدينة وانهماكهم بأعمال النهب ليل نهار . وقد دامت القلاقل التي شاعت في شباط حتى تشرين الثاني . وضربت الفوضى اطنابها بحيث أن جماعات من الشيعة قاتل بعضها بعضا وقتله .

يبدو جليا ان السلطات كانت في معظم الاحيان عاجزة أو متواطئة ، فان القلائل كما سنرى كانت كذلك على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي .

الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

كان النشاط الاقتصادي ببغداد في القرن العاشر مايزال هائلا ، فخلال الشطر الاول من هذا القرن ساهم ترف بلاط المقتدر ومجتمع الطبقة العليا في ديمومة هذا الانتعاش ، كما ساهم بذخ وزراء معز الدولة وفعالية معزالدولة في هذا المجال ، ولكن القلاقل في عهود أمراء الامراء السابقين على معز الدولة أوقعت ضربة مميتة على رأس رخاء المدينة وبلهنيتها . وبعد معز الدولة كان عهد بختيار على وجه التأكيد ضئيل الجدوى على الحياة الاقتصادية . وقد أعاد عضد الدولة البحبوحة لحقبة قصيرة ، ولكن نهاية فترة الحكم البويهي كانت بلا شك نهاية مكرثة اذ نقص مجموع المساحة المسكونة كما نقص السكان .

كان لبغداد سوقان رئيسيان ، سوق الكرخ على الجانب الايمن وسوق الثلاثاء على الجانب الايسر عدا الاسواق الاخرى على عدوتي النهر . وكانت الملاحة نشيطة في دجلة وفي نهر عيسى ونهر الصراة (بالنسبة للاخير تنقل منه البضائع واليه انطلاقا من موضع المحول بسبب ضيق القناة) وهي مرتبطة بنهر الفرات . وكانت هناك ثلاثة جسور تسهل المواصلات بين الضفة اليسرى والضفة اليمنى : الاول بمواجهة باب الطاق والثاني أسفل منه والثالث مقابل سوق الثلاثاء ، على الاقل ابتداء من عام ٣٨٣ / ٩٩٣ ، كما يروي الخطيب البغدادي، اذ لم يكن الجسر الثالث موجودا قبل ذلك .

وكانت الصناعة الرئيسية هي صناعة النسيج ، ومنسوجات بغداد الحريرية والقطنية المترفة مستوردة بصورة خاصة ، كذلك كان يصنع في بغداد السقلاطون (نسيج حريري مقصب بالذهب) ، والملحم (نسيج سداه فقط من الحرير لا لحمته) والعتابي (نسيج حريري أو قطني يعمل في الحي المسمي حي العتابيين) والعمائم غالية الاثمان . وكانت هناك أيضا منتوجات اخرى تصدر من بغداد ينورنا عنها الجغرافي المقدسي او المؤلف الفارسي المجهول لحدود العالم . وكانت بغداد تستورد من الموصل (القمح والدقيق) ومن البصرة (التمور ومنتوجات الشرق) وكانت هذه التجارة بالغة الخطورة . وقد سهلت التجارة أوراق الاعتماد التي كانت تستعمل حتى في الاغراض الشخصية الخاصة . وهكذا فان الامير الحمداني سيف الدولة كان قد نزل في بغداد في دار الفتيان ، فترك عند قفوله عنها صكا بألف دينار على مصرف صرف لحامله المبلغ لدى الاطلاع . .

ولكن العبث بالاموال العامة والاهمال الاداري ولجوء السلطة الى اجراءات المصادرة والغرامات والرسوم الفادحة الجائرة واساءة استعمال السلطة من قبل الموظفين في أعلى السلم الاداري وأدناه والاخلال بالأمن نتيجة للحروب الاهلية وأعمال العصيان الشعبية والعسكرية وجرائم الغوغاء والعيارين ، هذه البلايا كلها لا يمكن أن تؤدي الا الى تأثير كارثي مفجع ، ويجب أن نضيف الى ذلك الجوائح الطبيعية كالفيضانات (٣٢٨ ــ ٣٣٠ ــ ٣٦٧ ــ ٣٧٠ ــ ٤٠١) والحرائق العرضية (٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٢ في الكرخ ، ٣٤١ في سوق الثلاثاء ــ للاطلاع على الحرائق كنتيجة لاعمال العصيان انظر أبعد .) وكالطواعين (٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٤٢٣) وكغزوات الجراد (٣٤٢) . كل هذه الوقائع كانت عاقبتها ارتفاع الاسعار والبؤس أو الجوع

ونزوح قبيل من السكان ، لاسيما في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر .

ان ذكر الاضطرابات وأعمال العصيان والقلاقل المختلفة جرى بحثه في ثنايا تاريخ ابن الاثير ، عدا الحالات الخطيرة الخاصة في باب « ذكر عدة حوادث » . والنتائج مرعبة . وسنرسم لها لوحة صغيرة معززة بالتواريخ التي تيسر مشقة الرجوع الى المؤرخين ، حمزة الاصفهاني ، الصولي، ابن مسكويه ، ابي الهلال الصابي ، ابن الجوزي ، ابن الاثير .

٢٩٩ نهب دار ابن الفرات اثر تنحيته .

٣٠٣ أعتصاب عسكري ، مهاجمة دار علي بن عيسى .

٣٠٦ تظاهرات الهاشميين ضد تأخر دفع مخصصاتهم ومناهضة للوزير علي بن عيسى، عصيان عسكري .

٣٠٧ فتنة عنيفة ، شعبية وعسكرية في آن واحد ، أجج نارها ارتفاع الاسعار في عهد الوزير حامد بن العباس الذي هوجم مقره . دامت ثلاثة أيام : نهب الحوانيت ، تحطيم المنابر ، تعطيل الصلاة ، حرق الجسور ، فتح السجون ، نهب دار الشرطة . وبعد قمع صارم أمر الخليفة بفتح الدكاكين العائدة للوزير والسيدة الام والامراء وبيع الحنطة والشعير بأسعار متهاودة ، وأثناء القمع اقتحمت القوات العسكرية على خيولها جامع الجانب الايمن وقتلت من قتلت .

٣١٢ عصيان الخيالة لتأخر اعطياتهم ، وهيجان شعبي مبعثه الجوع وارتفاع الاسعار .

٣١٥ عصيان عسكري .

٣١٨ كذلك .

٣١٩ كذلك (من عام ٣٠٨ الى عام ٣٢٠ يعد حمزة الاصفهاني ١٨ عصيانا أو فتنة) .

٣٢٠ تظاهرات الهاشميين المطالبين باعطياتهم .

٣٢٣ تظاهرات الهاشميين الذين عطلوا صلاة الجمعة في بغداد الغربية .

٣٢٤ أزمة اقتصادية ، جباية الضرائب مقدما . مظاهرات الهاشميين في بغداد الغربية والشرقية . هياج الشعب في مسجدالرصافة بسبب غلاء الاقوات . العساكر تطالب بمرتباتها وتنهب دار الوزير ابن مقلة .

٣٢٦ حرق دار بجكم من قبل قوات ابن رائق . الغوغاء تسرق الملابس في الحمامات وتهاجم موكبا جنائزيا . الاسعار ترتفع .

٣٢٩ ابتزازات أحد ضباط بجكم تحمل عددا من الاغنياء التجار على الفرار من بغداد ، مظالم ديلم الامير كورنكيج التي شكا منها الصولي مرّ الشكوى لنهب منزله . يتظاهر السكان بعنف ضد الديلم في جامع القصر ويذبحونهم أثناء فرارهم لدى وصول ابن رائق .

٣٣٠ ارتفاع سعر الطحين : التماس يوجه الى الامير الحمداني في الموصل لارسال كمية من الدقيق .

٣٣١ امارة ناصر الدولة الحمداني . ارتفاع الاسعار . جوع . طاعون . الناس يأكلون الجراد . لايستطاع دفن الموتى لكثرتهم . يزداد عدد اللصوص . كثرة من الناس تهجر المدينة . بعد سفر ناصر الدولة يهاجم الاهالي الجنود الذين يصادرون الطحين . ترتفع الاسعار . الشقي ابن حمدي ينهب السفن التي تمخر في دجلة . يلقى القبض على أفراد عصابة ابن حمدي ويشنقون . ترتفع أسعار الفواكه في بغداد نتيجة أعمال سرقتها في الطرقات .

٣٣٢ خروج الاغنياء اليهود والزرادشتيين أثناء امارة توزون . ابن شيرزاد كاتب توزون يعقد ميثاقا مع ابن حمدي يؤمنه على عدم معاقبته على سرقاته لقاء تسليم ١٥٫٠٠٠ دينار شهريا للخزينة . ومع ذلك لم يشفع له هذا الميثاق لانه اعتقل بعدئذ وقتل . حرق الكرخ بعد نهبه .

٣٣٣ بضع عصابات للسرقات حسنة التنظيم تعيث فسادا في بغداد الشرقية فتهاجمها هجوما مسلحا وتمارس أعمال السمسرة وتحيا حياة انحلال . وثمة جماعة اخرى من السماسرة والوسطاء كان مقر قيادتها في الحي المسيحي من دار الروم ، كانت كما يقول الصولي (ج ٢ ، ص ١١٣ – ١١٤ – ١١٧) تأتمر بأمر الجاثليق . يثير ارتفاع الاسعار تظاهرة عنيفة في مسجد بغداد الشرقي .

٣٣٤ تحمل المصادرات الثقيلة والضرائب الفادحة أثناء امارة ابن شيرزاد تجار بغداد على تركها . هجمات عديدة للصوص . ارتفاع الاسعار والمضايقات التي سببت عرقلة التموين بسبب الحرب بين ناصر الدولة ومعز

الدولة تخلق جماعة مريعة في بغداد يضطر الناس معها لاكل كلابهم وقططهم وحبوب خروب الشوك(١٤) الذي أحدث تلبكات واضطرابات في الامعاء : حالات أكل لحوم البشر . بيع البيوت والممتلكات الاخرى برغيف . لا يستطاع دفن الموتى جميعهم . الكلاب ترعى في الجثث . هروب فريق من الناس الى البصرة فيموتون من الانهاك لدى وصولهم اليها .

٣٤٨ معارك ضارية في صفوف الرعاع تتبعهما حرائق .

٣٤٩ ومايليها . اضطرابات مبعثها الصراع بين السنة والشيعة (انظر الى ماسلف) .

٣٥٦ تظاهرات الاتراك والديلم المتحالفين للمطالبة بزيادة مرتباتهم . مشادة بين الرئيس التركي سبكتكين وبختيار .

٣٥٨ مرسوم يثبت بالقوة الجابرة الاسعار لمكافحة غلاء المعيشة . هذا الاجراء لم يجد الا في تفاقم البؤس ، فيسحب المرسوم . نزوح السكان الى الموصل وسوريا وخراسان .

٣٦١ ومايليها . معارك بين الشيعة والسنة (انظر الى ما تقدم) . تمرد عسكري .

٣٦٢ عصيان الديلم إثر اعدام أحدهم .

٣٦٣ عقب منازعات ومشاحنات بين سبكتكين وبختيار يبحث الخليفة المطيع مع وزيره ابن باقيا مشروع الفرار من بغداد . يعيده اليها سبكتكين بالقوة .

٣٧٢ ومايليها . نزاع بين أولاد عضد الدولة (صمام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة) يتدخل فيه القرامطة .

٣٧٢ جوع في العراق وبغداد . موتى كثيرون .

٣٧٥ يفرض صمصام الدولة ضريبة العشر على المنسوجات الحريرية والقطنية . يعقد اجتماع للاحتجاج في مسجد المنصور . تمرد عسكري .

٣٧٦ غلاء الاقوات الفاحش في العراق بأسره ونزوح السكان . نزاع بين الاتراك والديلم في بغداد .

٣٨١ عصيان الديلمي . تعطيل الخطبة . قلاقل في صفوف العامة وحرائق في أحياء متعددة .

٣٨٢ تمرد الديلم ضد بهاء الدولة . نهب قصر الوزير ابي نصر سابور . ارتفاع الاسعار : رطل من الخبز يباع بأربعين درهما . هيجان في الكرخ يقمع بهمجية ووحشية .

٣٨٣ ارتفاع سعر الطحين وسعر الحنطة ارتفاعا مذهلا في العراق كله .

٣٨٩ غب فرض الوزير ضريبة عشرية على منسوجات الحرير والقطن ، ثار سكان حي العتابية وحي باب الشام وأشعلوا النار في بناية ادارية . اعتبر الرعاع مسؤولين . اعقتل أربعة منهم واعدموا .

٣٩٢ أعمال عصيان جديدة وسلب ونهب يرتكبها العيارون : نهبت كنائس واحرقت . ارتفاع الاسعار وتفاقم التعاسة . اقفار الاسواق من الناس والبضائع . المدينة يهجرها السكان . يعتقل عيارون علويون وعباسيون ولصوص أتراك ويغرقون في دجلة .

٣٩٧ تمردات مدنية وعسكرية ولدها غلاءالمعيشة .

٤٠٨ المدينة يهجرها الديلم تحت ضغط الشعب . جرائم العيارين .

٤١٦ جرائم العيارين . أعمال قتل ونهب . حرق الكرخ . ارتفاع الاسعار .

٤١٧ الاتراك سادة المدينة يصادرون الممتلكات وينتزعون مائة الف دينار من الكرخ . العيارون يحذون حذوهم . الجيش يحرق الكرخ ويسرق منه مبالغ جسيمة . افلاس أشراف الناس .

٤١٩ عصيان الاتراك ونهبهم دار الوزير .

٤٢١ لصوص اكراد يسرقون خيول الاتراك في بغداد . جلال الدولة الامير البويهي يضع خيوله في منجى من السرقة في دار المملكة .

٤٢٢ اشراك العيارين في المطاحنات الجارية بين السنة والشيعة .

٤٢٤ يغدو العيارون أقوياء الى درجة أنهم ارغموا قائدا عسكريا على مبادلة أربعة من رجاله اعتقلوهم بأربعة من رجالهم كان اعتقلهم القائد .

٤٢٥ لحماية السكان من غوائل العيارين يكلف الرئيس التركي بالسهر على النظام في بغداد الغربية . اعتقال رئيس العيارين الشهير

---

(١٤) انظر قويميس المنصوري ، رقم ١٢٢٣ . يدعى كذلك (خروبا نباتيا) .

بالبرجمي واعدامه ، وكان انصاره قد ارغموا الخطيب على ذكر اسمه في الخطبة ، كما لو كان أميرا حقيقيا ، وكان يتميز بخصال الفرسان .

٤٢٦ عجز الجيش عن منع سرقات الاكراد وانتهابات العيارين .

٤٢٧ الاتراك يكرهون جلال الدولة على الفرار من بغداد .

دامت هذه الاضطرابات حتى نهاية الاسرة البويهية وقدوم السلاجقة .

***

تجاه كل هذا ماذا بمقدورنا أن ندون من معلومات يقينية لصالح عمل الحكومة ؟ شيئا قليلا في الجانب الايجابي لوزير المقتدر علي بن عيسى . لقد اصطدمت سياسته الاقتصادية بجمهرة من الظروف العصيبة . كانت القضية الملحة قضية اقامة مستشفيات في بغداد ، فأسس مستشفى في حي الحربية عام ٣٠٢ وفتح مستشفيين آخرين عام ٣٠٦ ، بيمارستان السيدة الام وبيمارستان المقتدر ، مع تنظيم شؤون الصحة العامة والاهتمام بمتطلباتها بصورة تصلح لان تكون امثولات حسنة في تلك الحقبة . وكان امراء الامراء الذين تعاقبوا على السلطة مشغوفين بتأمين السلطة والحفاظ عليها والحصول على الاموال . فاذا كانوا قد بذلوا جهودهم لاستتباب النظام في بغداد ولقطع دابر الجرائم فلمصالحهم الخاصة ، أما رخاء السكان فلم يكن يهمهم الا قليلا . لقد أصلح معز الدولة البويهي القنوات وانفق نفقات باهظة على قصره فانتفع الاهالي من هذه الاعمال بعض الانتفاع . وأعاد الرفاه الى عهده الاول في بغداد بعض الوقت بانعاشها الى حد بيع عشرين ليبرة من الخبز السميذ بدرهم واحد . ولهذا أصبحت له شعبية في بغداد . وكانت حوادث الفتن نزرة في عهد امارته . وشعر الشعب بالغبطة والابتهاج دون شك لدى رؤيته المشاهد الجديدة التي أدخلها على بغداد ، كمشاهد المصارعات في الميادين العامة التي كانت تتخللها الموسيقى وتكللها الجوائز . أو كمناظر مسابقات الملاحة في دجلة(١٥) . ولكن ينبغي أن نقول انه افتتح عام ٣٥٠ نظام بيع الوظائف العامة (كمنصب القاضي ووظيفة المحتسب) وذلك رغم انف الخليفة .

كان عضد الدولة اداريا فاخرا لبغداد والعراق . وكانت المدينة بعد امارة بختيار قد تخربت أو كادت تتخرب . فان هذا بلغ به الامر أن هدم القصور ، كقصر شيراز(١٦) لبيع موادها . فجدد عضد الدولة بناء المنازل ، بل لم يتردد في هدم البيوت الماثلة للانهدام ليقيمها مرة اخرى أحكم بناء وأحسن جمالا ، وقد انفق مبالغ هائلة في اعادة بناء المساجد . ومنح الحرس اعطياتهم بصورة منتظمة ، وكذلك فعل مع المؤذنين والائمة والقراء . وأمر باعادة زرع الاراضي المخربة ، موافقا بذلك على الاستقراضات من الخزينة ، على ان تعاد اليها ثانية . كما أمر ببناء سدود على ضفاف دجلة واعاد بناء البيوت الساحلية . واستأنف اعمار بستان الزاهر على الشاطيء الايسر . وجدد حفر القنوات ومسارب المياه وأحكم قواعد الجسور وعلى الاخص جسر باب الطاق . كل هذا حدث عام ٣٦٩ / ٩٧٩ . وفي عام ٣٧١ / ٩٨١ مهر بغداد بمستشفى جديد حمل اسمه . وفي عهده اقيمت مراسيم ضرب الطبول أمام بابه في أوقات الصلاة الثلاثة الرئيسية في اليوم ، وهو امتياز لم يحصل عليه معز الدولة من الخليفة المطيع . وقد أمر أحد خلفائه سلطان الدولة (٤٠٣ — ٤١٢ / ١٠١٢ — ١٠٢٢) بضرب الطبل في أوقات الصلوات الخمس(١٧) . أما خلفاء عضدالدولة المهرولون بين فارس والعراق ووزراؤهم فانهم لم ينعموا على بغداد بنعمة تذكر . ومع ذلك فان الوزير أبا نصر سابور بن أردشير قد أسس في بغداد عام ٣٨٣ / ٩٩٣ دار العلم التي هي عبارة عن جامعة بمكتبتها العظيمة الموقوفة عليها . وكانت بغداد حتى ذلك الحين ماتزال مركزا للنشاط الثقافي لذلك لم تفقد أهميتها العالية رغم القلاقل .

لا نتمالك أنفسنا من الاندهاش من كثرة الفتن والاضطرابات والمجاعات والهزات المختلفة التي شقيت بها بغداد خلال القرن العاشر وفي مطلع القرن الحادي عشر . ان غلاء الحياة ، الذي كانت مسؤولة

---

(١٥) ابن الجوزي الذي أورده ميتز ، ٣٨٥ ، رقت مشاعر الشعب فتحسس كذلك بجمال المشهد الذي عرض بمناسبة أعياد النوروز الفارسي التي عرفت اعادة بعض الشعبية للديلم . ولما جاء معز الدولة لرؤية الوزير (الشيرازي أبي الفضل عباس بن الحسين في داره) الواقعة على شاطيء نهر الصراة ، كان قد مد حبل من الضفة الاولى الى الضفة الثانية من دجلة وغطى النهر بالازهار المشدودة بالخيوط . ويقول الحصري في ذيل زهر الآداب ص ٢٧٥ ان زوارق تزدحم فوقها الناس احتشدت فوق النهر . وستجدون في هذا النص وصف القصر الضخم من السكر المؤلف من أربعة طوابق الذي رفعه الوزير في بستانه .

(١٦) مسكويه ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

(١٧) ابن الاثير ، ص ٣٦٨ و ٤٠٨ ومسكويه ، ج٢ ، ص ٢٩٦.

عنه الادارة السيئة ، كان متصل الحلقات وهو يفسر جزئيا أعمال السرقة والنهب ، ولكن يجب ان نلاحظ مليا في بعض الاوقات تراخيا تاما من جانب السلطة من جهة وتدهورا أخلاقيا مرعبا من الجهة الاخرى. اننا نرى أمامنا مشهد مدينة ماتزال حاشدة بالسكان ولكنها متروكة الى رحمة نزوات الجنود والى سطوات اللصوص والى وثبات المجرمين في مجال تفاقم شر العصابات وتفشي السمسرة والدعارة ونشاط كل هذه العناصر بصورة مكشوفة . وماذا عسى أن نقول عن العيارين الذين أسرفنا في ذكرهم؟ ان تاريخهم لايبدأ من هذه الحقبة . لقد رأيناهم في العصر الفائت ، وكانوا منظمين ، يساعدون السلطة أحيانا ويقارعونها أحيانا . كما استنجد بهم ابن شيراز عام ٣٣٤ (مسكويه ، ج ٢ ، ص ٩١) ليقرع بهم رأس معز الدولة والديلم . ونحن نميل الى أن نرى فيهم شيئا آخر غير كونهم شقاة ولصوصا ، لأنهم كانوا منظمين تنظيما شبه عسكري ومنصاعين للاوامر نسبيا ، لأن بعض رؤسائهم أمثال ابن حمدي(١٨) أو البرجمي قد أقاموا الدليل على تمسكهم بالروح العسكرية ، فآثروا مهاجمة الاغنياء ولم يتعرضوا للنساء والفقراء . وهذا اتجاه رومانتيكي معروف للغاية في الادب الاوروبي . وقد استطاعوا في بعض الازمنة ان يقفوا سورا بوجه الفوضى الشاملة ، ولكن مهما تكن الاخطاءالسياسية التي اسهمت في نشوء هذه الفرق من العيارين فينبغي ان نجزم جزما صادقا أن العيارين كانوا أحد الاسباب الرئيسية فيما حاق ببغداد من الرزايا وما نزل بساحتها من تدهور في تلك الحقبة التي نحن بصددها .

---

(١٨) راجع التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .